

مدرسة مازونة : مسيرة علمية تزيد عن أربعة قرون، ومركب فريد في الثقافة الإسلامية

د/ بوسليم صالح

قسم العلوم الإنسانية جامعة غرداية

تقديم:

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على بعض الجوانب من مسيرة مدرسة مازونة⁽¹⁾ في العهد العثماني وخلال الحقبة الاستعمارية، والتي تزيد عن أربعة قرون. وحاولنا من خلال ذلك أن نبرز البعد التاريخي المكاني والزمني لإحدى الحواضر العلمية والثقافية كي تبقى حاضرة في الذهن العربي، وليتعرف الجيل الجديد على تاريخه الحضاري العريق، وكنوزه الثقافية، وإسهاماته في الحضارة العربية والإسلامية.

تُعد مدرسة مازونة مؤسسة علمية ثقافية؛ دأبت منذ نشأتها الأولى في حدود القرن السادس عشر الميلادي على القيام بدور فكري ثقافي رائد في هذا القطر من أقطار العالم الإسلامي.

وخلال أربعة قرون أو تزيد كانت حلقة وصل بين الماضي والحاضر، تحيا في أركانها لغة القرآن، ويتصل سند هذا الكتاب الكريم بين أجيال المعلمين والمتعلمين فيها رواية وضبطا وسماعا وحفظا، وتتردد بين جنباتها مرويات السنة ومباحثها سندا ومنتنا، من أجل ذلك لازمها المجاورون وشد إليها الأبعاد الرجال طيلة العهد العثماني وخلال سنوات من الفترة الاستعمارية، وكان لمدرستها الفضل في هذا الصيت الواسع والسمعة الطيبة.

وعند ذكر مدرسة مازونة تتبادر إلى الذهن تساؤلات عدّة: إلى متى يعود تاريخ تأسيسها؟ وماهي أبرز التطورات التي شهدتها خلال العهد العثماني؟ وفيما تمثل دورها العلمي والثقافي، وما هي أهم انعكاسات ذلك محليا وإقليميا خلال تلك الفترة؟ .

وسنحاول توضيح جوانب من الإجابة من خلال النقاط الآتية:

1. نشأة مدرسة مازونة
2. ظروف تأسيس المدرسة
3. تطور مدرسة مازونة التاريخي
4. مكانة مدرسة مازونة التاريخية وأهميتها العلمية

أولاً: نشأة مدرسة مازونة :

تُعتبر مدرسة مازونة رمزاً حضارياً ومعلماً ثقافياً للجزائر طيلة قرون عدة من الزمن تناولتها المصادر بإسهاب، ثم المؤرخون المعاصرون بإنتاجها جملة، إذ كانت تقارن أيامها حسب بعضهم بالمعاهد العليا في فاس، وتونس ومصر، لما كانت تتوفر عليه من أساتذة وعلماء ذاع صيتهم في المغرب والمشرق⁽²⁾.

إن المؤكد هو أن مازونة كانت تحوي أكثر من معلمي ثقافي وعلمي، خاصة منها الزوايا والمساجد، كلها ساهمت في بعث الحركة العلمية طيلة العهد العثماني، وفترة من عهد الاحتلال الفرنسي، لكنها اشتهرت بمدرستها التي بلغ صيتها عنان السماء، وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله: " .. وهناك مدن أخرى في غرب البلاد كان وضعها غير مستقر أيضاً، ولكن حظها من التعليم كان أفضل من حظ وهران... وكانت مدرسة مازونة مقصد العديد من الطلاب ... " ⁽³⁾.

وجدير بالذكر أن تحديد تاريخ تأسيس مدرسة مازونة، يُعد من المواضيع التي أسالت الكثير من الحبر لدى جمع معتبر من المؤرخين والباحثين، حيث ملأت إنتاجهم رفوف المكتبات، فنجد مثلاً أبا القاسم سعد الله يصف ذلك بقوله: "... لم تكن للجزائر العثمانية مدرسة مستقلة للتعليم المحض ...

باستثناء مدارس تلمسان التي تعود إلى العهد الزياني، وكذلك مدرسة مازونة التي تأسست أواخر القرن 10هـ/16م⁽⁴⁾.

أما الشيخ المهدي البوعبدلي فيرى أن المدرسة تأسست حوالي سنة 1000هـ/1590م من طرف الشيخ محمد الشارف في سليل عبد العزيز البلداوي. ويؤيد ذلك العيد مسعود⁽⁵⁾ وجل المؤرخين المحدثين. ومما جاء في قول أحدهم: "مدرسة مازونة ذات الشهرة المغربية، والتي شيدت في نهاية القرن 16م، من طرف الشيخ محمد بن الشريف الأندلسي..."⁽⁶⁾.

وهناك رأي ثان، يرى أن تأسيس المدرسة يرجع إلى ما قبل التواجد العثماني بالجزائر ويتضح ذلك جلياً عند الباحث عبد المجيد مزيان، حيث يربط نشأة مدرسة مازونة بمدرستي العباد والتاشفينية بتلمسان، ويضعهم في نفس النهج، حيث يقول في معرض حديثه: "ونذكر بأن أشهر المدارس التي تبنتها الدولة مع مساندة الجماعات كانت التاشفينية ومدرسة العباد...مدرسة مازونة وهي نموذج مصغر لمدرسة تلمسان"⁽⁷⁾

وقد أصبحت مازونة عاصمة للبايلك الغربي منذ سنة 1565م، واستمرت طيلة قرن ونصف من الزمن⁽⁸⁾. ومن خلال الطرحين السابقين حول تأسيس المدرسة، نرجح الرأي القائل بتأسيسها خلال القرنين العاشر والحادي عشر هجري / السادس عشر ميلادي، لأسباب عدة أهمها:

- غياب الأدلة القاطعة بوجود مدرسة بمازونة أيام العهد الزياني في المصادر التي تناولت الفترة، وأخص بالذكر، كتاب العبر لابن خلدون، و البستان لابن مريم وصف إفريقيا للوزان، ونزهة المشتاق للإدرسي.

- حالة الاضطراب وغياب الاستقرار التي عرفت مازونة أيام الزيانيين، بسبب مواقف حكامها إزاء دولة بني زيان، فتارة يعلنون ولاءهم، وتارة يكسرون

عصا الطاعة، ويتحالفون مع الحفصيين ضدهم، وهذا ما أدى الى عدم الاستقرار الذي تمخض عنه هجرة العلماء والمشايخ من زواياهم وجوامعهم، إلى حواضر أخرى خاصة تلمسان .

- دخول الجزائر تحت سلطة آل عثمان، تولد عنه اختيار مازونة كعاصمة للبايلك الغربي منذ 1565م والذي استمر حتى مستهل القرن الثامن عشر للميلاد⁽⁹⁾، حكمها عدة بايات، منذ عهد حسن بن خير الدين باشا، كان أولهم أبو خديجة، فالسايع الذي حكم إحدى عشر سنة، ثم الباي ساعد، وخلفه الباي محمد بن عيسى ... إلخ⁽¹⁰⁾. وكان لهذه المكانة السياسية لمازونة وقعها العلمي والثقافي، فشيدت فيها مدرسة من طرف الشيخ محمد بن الشارف الأندلسي، وأضحت خلال العهد العثماني قبلة لطلبة العلم من شتى البقاع والأصقاع.

- تأكيد جُل المؤرخين الجزائريين، ومنهم الأستاذ المؤرخ أبو القاسم سعد الله، في أكثر من كتاب على ذلك، بقوله: "وقد بني أحد المهاجرين الأندلسيين مدرسة مازونة المشهورة التي تخرّج منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني، وهو محمد بن الشارف البولداوي، وظلّت هذه المدرسة محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة إلى معسكر"⁽¹¹⁾.

كما تؤكد الدراسات المحلية الحديثة على أن تأسيس المدرسة الفقهية والمسجد كانا على يد الشيخ محمد بن الشارف، وذلك في أوائل القرن الحادي عشر الهجري. وقد درّس فيها حوالي أربعة وستين سنة إلى أن توفاه الأجل رحمة الله عليه في سنة 1164هـ⁽¹²⁾.

ثانيا: ظروف تأسيس المدرسة :

يعود تاريخ نشأة المدرسة إلى حدود مطلع القرن السادس عشر ميلادي، على يد الشيخ محمد بن الشارف الأندلسي. حيث كان لهجرة الأندلسيين إلى

بلاد المغرب الإسلامي عامة، ومنها الجزائر خاصة وقعه الخاص على المنطقة، وفي شتى المجالات، منها السياسية والاقتصادية والثقافية. إذ احتكروا ميدان التعليم، ولا سيما في الحواضر. ونقلوا مناهجهم التعليمية إليهما، ومن ذلك عدم اقتصرهم في التعليم على حفظ القرآن، بل أضافوا إلى التعليم القواعد العامة لمختلف العلوم وتدارس بعضها. كما علّموا روايات القرآن بمختلف أنواع قراءاته⁽¹³⁾.

وكانت السلطة تعيّن للمدارس كبار العلماء الأندلسيين وغيرهم، وتجري عليهم المرتبات تشجيعاً منها لدفع عجلة التعليم إلى الأمام. وقد شهدت حاضرة مازونة عز أيامها لم تشهدها - في حدود اطلاعنا - لا من قبل ولا من بعد، بوصفها عاصمة للعثمانيين في المنطقة، وامتلاكها لمدرسة بلغ صيتها عنان السماء بعدما أسّسها بعض الأندلسيين بغية نشر العلم والدين⁽¹⁴⁾، حيث تذكر الروايات أن الشيخ محمد بن الشارف الأندلسي، كان يملك قطعة أرض خارج المدينة مساحتها تقدر بعشرين هكتاراً، اشتغل فيها طيلة تواجده في المنطقة، وبقيت تشكل مصدر عيشه، حتى رأى ضرورة وجود مركز للعلم والتعليم يتماشى ومتطلبات العصر، نظراً لوجود زوايا ومساجد لم تنل طرائق تعليمها رضى الشيخ الأندلسي، فاضطر إلى بيع القطعة بثمن قدره ثلاثين دورو⁽¹⁵⁾، كخطوة أولى، لتقع على رقعة متوسطة الحجم داخل المدينة مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء، مما يعني أنها كانت لثلاثة أشخاص مختلفين . فقرر شراءها، وسأل عن أصحابها، فوجدهن نساء فاشتراها منهن مقابل ثلاثة دورو لكل جزء، وبمجموع تسعة دورو، ثم قام بتسوية القطعة وتمهيتها، لبناء مدرسة متهمتها تلقين العلم والفقه، لكن بعد معرفة النسوة الثلاث بنوايا الشيخ سعين لإهدائها إياه، فرفض ذلك وحرص على دفع ثمن القطعة لأصحابها، ومن حينها انطلقت الأشغال في بناء مدرسة ومسجد، وساهمت في ذلك الدفعة الأولى من الطلبة التي كان يقدر عددها بنحو

عشرين طالبا، تكفلوا بنقل الديدس والخشب من الغابات المجاورة على ظهر الحمير والبغال⁽¹⁶⁾.

ويبدو أن تأسيس المدرسة في بدايتها كان بشكل بسيط وبأدوات تقليدية، تمثلت - كما سبق الذكر - في الطين والديدس، والخشب والحجارة.. الخ، لكن يبدو أيضا أن السلطة العثمانية تكفلت بأمرها فيما بعد، وعملت على إعادة بنائها وتوسيعها وفق المكانة السياسية التي أصبحت تحتلها مازونة منذ سنة 1565م وإلى غاية مطلع القرن الثامن عشر.

ثالثا: تطور مدرسة مازونة التاريخي:

كان القرن السادس عشر للميلاد نقطة تحول كبيرة في الحياة العامة لبلاد المغرب الإسلامي، منها قدوم الأتراك العثمانيون وإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية واتخاذ مدينة الجزائر عاصمة لها، واشتد أثناءها الصراع بين المسيحيين والمسلمين برا وبحرا، وشرع حينها العثمانيون في تنظيم البلاد، واختاروا مدينة مازونة أول مقر لبايلك الغرب قبل معسكر ووهران، فزاد بذلك الاختيار إشعاع البلدة سياسيا وثقافيا.

وتذكر بعض المراجع أن المدرسة استمرت تشع بالمعرفة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران، وكانت مقصدا لطلاب النواحي الغربية ولاسيما ندرومة، ومستغانم، وتنس، وتلمسان، ووهران⁽¹⁷⁾.

ونظرا للمكانة العلمية التي كانت تحظى بها المدرسة، فقد كان يقصدها فقط المتفوقون عن أقرانهم في زوايا ومدارس بلدانهم، كما هو الشأن عند أبي راس الناصري (ت1823م)، ومحمد بن علي السنوسي⁽¹⁸⁾ الذي تعتبر حركته من أهم الحركات الإصلاحية والتجديدية في بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.

لقد كانت مازونة بحق حاضرة علمية ومدرسة فقهية رائدة، ظلت تحتل مكانة هامة ووحيدة في الغرب الجزائري، إذ كانت تحتل موقعاً سامياً للثقافة والعدل؛ طيلة ثلاثة قرون من الزمن. ولعبت دورين أساسيين، أولهما⁽¹⁹⁾: دور ديني، ويتمثل في العبادة وفق المنهج السليم على مذهب الإمام مالك، وثانيتها: دور ثقافي، يتمثل في تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن، وإلقاء الدروس من طرف المشايخ والفقهاء.

ولم تكتف مدرسة مازونة في العهد العثماني بالجانب العلمي والثقافي، والذي ساهمت من خلاله في بعث الحركة العلمية في المنطقة التي كادت تندثر، بل تعدت ذلك حيث ساهمت في الدفاع عن الوطن، وإعلان الجهاد ضد الاحتلال الأسباني في المرسى الكبير بوهران، في إطار حملة منظمة قادها شيوخ وطلبة الزوايا والمدارس، فانطلق من مازونة الشيخ أبو طالب وابنه هني رفقة عشرين طالبا، حيث رابطوا أمام وهران، وخاضوا معارك ضارية ضد الإسبان كلفتهم فقدان العديد من الطلبة والمشايخ. ولعل من أبرزهم سيدي هني نجل الشيخ أبي طالب الذي استشهد في قلب المعركة، ونقلت جثته إلى مسقط رأسه بـمازونة، وإرضاءً لشيوخ المدرسة، وعرفانا بجميلهم، جدد البايات بناء المدرسة أكثر من مرة⁽²⁰⁾.

ومن هنا يُستشف الدور الذي لعبه علماء ومشايخ مازونة في مواجهة العدو الاستعماري، وشحن الجماهير للدفاع عن وطنهم، كما يتضح أيضا أن العلماء كانت لهم مكانتهم وهيبتهم عند البايات والحكام. فنجاح الباي، أو فشله مرهون بمدى خدمته للعلم ومراكزه من مساجد وزوايا ومدارس.

ولعل أهم شخصية ميّزت مدرسة مازونة في العهد العثماني هو الشيخ محمد بن علي أبي طالب. وبغض النظر عن مكانته العلمية والدينية، إلا أنه قام بقيادة جموع الطلبة في حربهم ضد الإسبان بقطعه الطريق من مازونة

إلى وهران مشياً على الأقدام، وقد جاوز الثمانين من عمره دون كلل أو ملل⁽²¹⁾. وقد حظي بمكانة في نفوس كل من تتلمذوا على يديه، أو عايشوه، وكان من أبرزهم الشيخ الفقيه عبد القادر بن المختار الخطابي المجاهري دفين مصر والمتوفى سنة 1336هـ، الذي أشاد بعلمه وأخلاقه في تأليف سمّاه "الكوكب الثاقب في أسانيد الشيخ أبي طالب"⁽²²⁾.

رابعاً: مكانة مدرسة مازونة التاريخية وأهميتها العلمية :

كان لتأسيس المدرسة الفقهية وقعه الايجابي على الحياة الثقافية والعلمية على مستوى بايلك الغربي، والجزء الشرقي من المغرب الأقصى، إذ شهدت الحاضرة إقبلاً طلابياً منقطع النظير من مختلف البقاع والأصقاع.

واستمر تدفق الطلبة على المدرسة طيلة العهد العثماني، ومعظم فترة الاحتلال الفرنسي؛ بالرغم من العراقيل التي كانت تفرضها الإدارة الفرنسية في الجزائر على المؤسسات التعليمية التقليدية، كحرمان خريجها من الوظائف الرسمية في الدولة. إلا أن ذلك لم يمنع هذه الحاضرة الفقهية من مواصلة رسالتها العلمية، لاستمرار أعلامها ومشايخها في عطاءهم العلمي. بحيث غدا التعليم فيها على درجة كبيرة من الأهمية، وتجاوزت شهرة المدرسة الحدود الإقليمية، كما استفادت من المناخ الثقافي الذي ساد المنطقة وقتها خاصة في تلمسان والقرويين بالمغرب الأقصى، والزيتونة بتونس⁽²³⁾.

وشهدت ترميمات عديدة اعترافاً بدورها الثقافي والسياسي ؛ حيث ساهم مشايخها وطلبتها في حملات الجهاد ضد الغزو الإسباني على مدينة وهران عدة مرات، وكانوا ممن تشرف بطردهم آخر مرة. وفي هذا يقول أحمد بن سحنون الراشدي: " ثم بعث الأمير الكبير إلى والي الأمة الشهرير وشمس علمائها شيخنا السيد محمد علي بن شارف المازوني، وكان مطاعاً عند الطلبة مهاباً بينهم، ما أمر ب هالا امتثلوه ... فقدم عليه هو وولده السيد

هني رحمه الله وأخوه السيد محمد في نحو المائتي طالب فدفع لهم العدة وآلاتها وألحقهم بإخوانهم، وأكثرهم لا علم له بالحرب، ولا بكيفية أخذ السلاح، شأن المشتغلين بالقراءة " (24). حتى وإن فقدت مازونة بعض بريقها بتحويل مقر البايلك منها إلى معسكر في مطلع القرن الثامن عشر، إلا أن مدرسة العلوم القانونية احتفظت بنشاطها، واكتسبت شهرتها من عدد العلماء الذين درسوا بها، وكثير منهم جاءها من ندرومه ووجدة وفقيق والونشريس والمدية (25). أما الطلبة فقد تضاعفت أعدادهم، إذ ذهبت بعض المراجع إلى حد استقبالها لزهاء سبعمائة طالب وكلهم يتلقون المساعدات والكفالة التامة من طرف المواطنين (26)، في حين تذهب بعض المراجع، وهي الأقرب إلى المنطق أن مدرسة مازونة كانت ذات أهمية كبيرة، ومن حيث الحجم كانت قاعتها تسع مابين (60) إلى ثمانين (80) طالبا، ويعتبر هذا العدد مقياس المراحل الزاهرة (27).

ولعلّ الفضل الكبير في استمرار هذه الحاضرة الفقهية وتطورها يعود لبعض بايات البايلك طيلة العهد العثماني، إذ يعتبر الباي محمد الكبير من أهم هؤلاء، ويؤكد ذلك قول أحمد بن سحنون الراشدي فيه: "من أعظم مآثره أنه رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزون (الإدارة) بشيء إلا من كان متوليا لحظة، أو مستعملا في خدمة، فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة (التعلم) وشهرت لها النفوس، وكثر طلب العلم، وتشوق كل واحد للتدريس، واشتد الحرص على العلم من بعد أن يترك اشتغالا بالتجارة لقلّة جدواه ... واشتهر بحبه للعلم وإحسانه إلى العلماء " (28).

لقد أنجبت مدرسة مازونة طيلة القرون الثلاثة من التواجد العثماني علماء فطاحل، بلغ صيتهم عنان السماء واستطاعوا أن يساهموا في صناعة تاريخ المنطقة، كما كان الشأن بالنسبة لأبي راس الناصري المعسكري، الذي

كان عالما واعترف له بذلك أقرانه في المغرب والمشرق، حتى وأن التاريخ لم يحفظ كل إنتاجاته التي كانت متنوعة، إلا أن ما بقي كافي لإظهار مكانة صاحبها العلمية والأدبية، وبعده تلميذه محمد بن علي السنوسي الذي شرب من نبع المدرسة الفقهية على يد علماء وفقهاء كرسوا حياتهم في خدمة العلم، واعتبر فيما بعد الأب الروحي والمؤسس الأول للطريقة السنوسية التي نادت بالجهاد في صحراء الجزائر وليبيا وتشاد.

ويبدو أن معظم شيوخ وأساتذة مدرسة مازونة كانوا من أهل البلدة، الشيء الذي ضمن الاستقرار والمواصلة في التلقين، ولازم ذلك سعة الحال عند معظمهم، ما يملكونه من بساتين وأراضي فلاحية⁽²⁹⁾، وبما أن الثقافة كانت في كثير من الأحيان تحت مسؤولية الدولة فإن حراس العقيدة رجال الشريعة والتوحيد أساتذة ومشايخ يدافعون بأقلامهم ودروسهم عن العقيدة الرسمية في المدارس، وفي حلقات الدروس العمومية بالجوامع، وقد حصل كما يرى الباحث عبد المجيد مزيان في كثير من الفترات انسجام بين رجال الدين والفكر ورجال السياسة، وهذا ما أدى إلى التساند في تثبيت العلم والعقيدة معا⁽³⁰⁾.

و استمر توافد الطلبة خلال الحقبة الاستعمارية على مدرسة مازونة الفقهية، من عدة أماكن مختلفة من الجزائر؛ وحتى من المغرب الأقصى⁽³¹⁾.

ويمكن القول، إن الوجود الاستعماري الفرنسي على أرض الجزائر قد عرقل كثيرا التعليم العربي؛ سواء في المساجد، أو الزوايا، أو المدارس، وذلك لاعتقاده الجازم بدور المؤسسات المذكورة في إيقاظ العقول، ومحاربة التواجد الفرنسي واستئصاله من على أرض الجزائر.

وفي هذا المضمار يقول الشيخ المؤرخ المهدي البوعبدلي: " بقيت مدرسة مازونة محط رحال طلبة المغرب الأقصى إلى غاية الحرب العالمية الثانية، حيث حورب التعليم الديني التقليدي في المدن والبوادي، إلا أن مدرسة

مازونة، ولو تدهور وضعف فيها التعليم، فإنها امتازت بالتخصص في دراسة
الفقه " (32).

إن حال مدرسة مازونة لم يكن مختلفا عن نظيراتها في باقي أرض
الوطن خلال الفترة الاستعمارية، إذ عملت فرنسا على تجهيل هذا الشعب
الذي رفض الاعتراف بواقعه الجديد، فحاربت رجال الدين وعلماء وشيوخ
المدارس والزوايا والمساجد، وهذا ما يؤكد المؤرخ الفرنسي بولار - نقلا عن
عبد الرحمان الجيلالي - في مناسبتين، حيث يقول يقول " لقد كان بالجزائر
في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة، وكان فيها
أساتذة متمكنين من علوم الفلسفة والفقه والأدب.. وكانت المدارس الكثيرة
العدد منتشرة في ربوع البلاد، والتعليم فيها شرعي وديني، ومدني " (33). ولعل
هذا يوحي بأن حال التعليم في الجزائر كان متطورا لقرون قبل مجيء
المغتصب الفرنسي الذي أخذ الأرض وهتك العرض، ونفس المؤرخ الفرنسي
يؤكد ذلك في قوله: " إن وصول الفرنسيين في الجزائر أحدث بلبلة عميقة في
عالم المفكرين والأدباء، لقد ترك أغلب العلماء كراسي تدريسهم، وتفرق
التلامذة، وعوضا عن الدروس العامة التي تؤخذ في الاجتماعات أخذ أولئك
يبحثون عن فك معميات العلوم في دروس منعزلة وبمدارس من الدرجة
الثانية أو في الزوايا البعيدة وقد وضعت إدارة المساجد والمدارس في يد
طماعين يحولون مصارف الأوقاف لحيوبهم، ومنذ ذلك الوقت أهملت كل
المدارس تقريبا ... " (34).

وهذه الشهادة تؤكد غطرسة السلطات الاستعمارية في حق رجال العلم
والدين في الجزائر بشكل عام، وكيف أنها حاربت التعليم الديني والعربي
لارتباطه الوثيق بنفوس الجزائريين، وذلك حتى تصل إلى مبتغاها، وتضمن
بقاءها أطول مدة زمنية ممكنة.

لقد كان نصيب مدرسة مازونة وعلمائها نفس نصيب غيرها في أرض الجزائر المستعمرة، فعانت الكثير من المضايقات ولفترات عدة، كان آخرها تدمير معظم هياكلها في نهاية الحرب العالمية الثانية⁽³⁵⁾.

لكن الأمر الذي يجب الاعتراف به هو تعامل السلطات الاستعمارية في بداية عهدها في الجزائر مع مدرسة مازونة تعاملًا إيجابيًا، ولا أحد كان متأكدًا من النوايا الحقيقية في ذلك، حيث كان أهم ما قامت به هو توسيع المدرسة على ما هي عليه اليوم، على عهد الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث (1852م-1870م)، وذلك في عام 1852م⁽³⁶⁾. ولعل المراد من التوسيع كان كسب العلماء والمشايخ، ومن ثمة كسب ثقة الشعب، لاعتقادهم الجازم بسلطة العلماء والشيوخ الروحية، وبتبعية الرعية لهم والامتثال إلى آرائهم.

وتذكر المراجع أنه بعد استفادة المدرسة من التوسيع حظيت بأحباس كثيرة، مما ساعدها على الاستقرار، وزادها شهرة في كامل الإقليم الغربي الجزائري، حتى أنهم كانوا إذا أرادوا أن يفتخروا بطالب لغزارة علمه عظموه بقولهم: "لقد درس بمازونة"⁽³⁷⁾.

وكان العصر الذهبي للمدرسة خلال الحقبة الاستعمارية هو عهد الشيخ أبي راس المازوني أحد أحفاد الشيخ أبو طالب الذي توفي في عام 1916م⁽³⁸⁾. وهو الذي أعاد لها مكانتها التي كادت أن تفقدها. ورغم كل هذه المشاكل التي عانت منها في ظل زحزة المدرسة الفرنسية النشيطة؛ استمر التعليم إلى منتصف القرن العشرين على يد الشيخ أحمد بن أبي راس المتوفى سنة 1958م، وهي السنة التي انطفأ فيها بريق المدرسة التي ظلت لقرون شمعة تحترق لتضيء لروادها⁽³⁹⁾.

و بدخول الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر زال الحكم العثماني وتغيرت الأحوال السياسية، فأثر ذلك على الحياة العلمية والثقافية في البلاد، وكان حظ مازونة من الدمار والخراب على يد المعتدي الفرنسي باهضًا، فشوه

معالمها، وقضى على عدة رموز لحضارات تعاقب عليها، كما أخضع مازونة للتقسيم العسكري، وخرّب جل زواياها ومناراتها العلمية ومساجدها، مما أدى إلى تشويه كلي للروح والطابع العمراني لهذه المدينة التي كانت قبلة العلم والثقافة يقصدها العلماء والطلبة من المشرق والمغرب لطلب العلم والفقہ الإسلامي في مساجدها، وزواياها، ومدارسها التي كانت متواجدة في كل حي منها مسجد سيدي عيسى وعزوز، المدرسة، مسجد الغريب عودة، بوعلوفة..⁽⁴⁰⁾ واهتدت السلطات الاستعمارية بعد عناء تفكير إلى قطع الطريق أمام خريجي المدرسة بحرمانهم من الوظائف الرسمية واستبدالهم بخريجي المدارس الفرنسية، وذلك لإحداث هوة بين الشعب الجزائري ومقوماته الحضارية كاللغة والدين، وبالتالي تسهل السيطرة، لكن رغم ذلك واصلت المدرسة رسالتها، وازداد توافد الطلبة عليها من شتى الأمصار⁽⁴¹⁾، وأضاف المشايخ والعلماء لواء المقاومة إلى لواء العلم والدعوة.

أما العصر الذهبي للمدرسة خلال الحقبة الاستعمارية، فكان في عهد أبي راس بن أبي طالب (ت1917م)، حتى أن مستشرقاً فرنسياً زار مازونة في ربيع عام 1882م، ونزل ضيفاً على القاضي أحمد الحميسي قد شاهد نوعاً من الفطور بسبب فقر المكتبة، وقلّة المدرسين، لكن رغم ذلك وأسباب أخرى، كزحزحة المدرسة الفرنسية النشطة فقد استمر التعليم إلى منتصف القرن الماضي على يد الشيخ أحمد ولد أبي راس (ت1958م)، لتنتفض بعده شمعة المدرسة الفقهية⁽⁴²⁾.

وهكذا ظلت مدرسة مازونة تلعب دورها كراع للعلم والدين، منذ تأسيسها في القرن السادس عشر للميلاد، فوقفت في وجه كل من حاول طمس الهوية الجزائرية، وعلمت الناس أمور دينهم على مذهب أجدادهم – المذهب المالكي – وكوّنت علماء فطاحل أمثال الشيخ أبو طالب، و أبو راس الناصري المعسكري، ومحمد بن علي السنوسي ... الخ، قادوا حركة التعليم

والجهاد في بلدانهم وخارجها. وتخرج منها خلال الحقبة الاستعمارية علماء أجلاء أمثال الشيخ المهدي البوعبدلي، وغيره كثيرون .

وقد لعبت هذه المدرسة إلى جانب مثيلاتها في شتى أنحاء الوطن دوراً ايجابيا في بناء جيل مشبّع بالثقافة العربية الإسلامية، وذلك لمواجهة السياسات الاستعمارية التي كانت قائمة على طمس هوية الأمة ومقوماتها، وزرع بذور التغريب والاستئصال. فوقفت في وجه الاستعمار، وفرضت عليه مواقفها ومبادئها، واستمرت في وظيفتها رغم العراقيل والحواجز، وظلت شامخة حتى أراد لها الله أن تأفل، وهي اليوم تن من تقاعس أبنائها، وتنتظر الزمن الذي تبعث فيه من جديد.

وحتى نعيد لمدرسة مازونة مجدها ونكرر إشراقها نوصي بما يلي:

- العمل على بعث المدرسة من جديد وفق برنامج ومنهج حديث، مع تكفل الدولة للتبعات المالية،
- تخصيص المدرسة بملتقيات وأيام دراسية تتعلق بتاريخها وآفاق بعثها من جديد بشكل مستمر،
- العمل على ترميم هذا المعلم الحضاري، والتعريف به بصفة دورية منتظمة،
- العمل على استرجاع ماضع من مآثر المدرسة من مخطوطات وتحف ثمينة، وعرضها على طلبة الباحثين لدراستها وتحقيقها،
- إنشاء متحف في المدينة يعرف الزائر إليه بمخلفات الحضارات التي تعاقبت عليها.

آخرأً، وليس أخيراً نأمل أن نكون قد استوفينا بعض جوانب الموضوع، ونأسف في الوقت ذاته عن أي تقصير. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الهوامش والإحالات :

- (1) تحدث عنها الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، حيث قال واصفا إياها مايلي: "مدينة أزلية بناها الأفارقة على بعد نحو أربعين ميلاً من البحر، تمتد على مساحة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة، لكن دورها قبيحة فقيرة، وفيها جامع وبعض مساجد أخرى، لقد كانت مدينة متحضرة جداً في القديم، لكنها كثيراً ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس وتارة من قبل الشوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم (يعني القرن السادس عشر) قليلة السكان، وهم إما نساجون أو فلاحون وجميعهم تقريباً فقراء، لأن الأعراب ينقلون كواهلهم بالاناثوات، والأراضي المزروعة جيدة تعطى غلة حسنة." ينظر: الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد محجي، محمد الأخضر، القسم الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص36.
- (2) ناصر الدين سعيديوني: عصر الأمير عبد القادر، ط1، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت 2000م، ص133.
- (3) أبو القاسم سعد الله: "بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني"، في جريدة البصائر، ع01 الجزائر، 21-28 جانفي 2002م، ص13.
- (4) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج01، ط03، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ص80.
- (5) مسعود العيد: "حركة التعليم في الجزائر في العهد العثماني"، في مجلة سرتا، العدد الثالث، السنة الثانية، قسنطينة ماي 1980م، ص65 وما بعدها.
- (6) فتيحة، الواليش: الحياة الحضرية في باليلك الغرب الجزائري خلال القرن 18م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1994م، ص169، ينظر أيضاً: مسعود العيد: مرجع سابق، ص65 وما بعدها.
- (7) عبد الحميد مزيان: "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار"، في مجلة التاريخ، ع2، الجزائر 1986م، ص14.
- (8) يحيى بوعزيز: مدن تاريخية - وهران - ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1985م، ص76، ينظر أيضاً: بن عودة المزارى: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1990م، ص271-272.
- (9) فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص16.
- (10) بن عودة المزارى: مصدر سابق، ص271.
- (11) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص183.
- (12) إبراهيم خراش: مونوغرافيا حول أرشيف مازونة، مذكرة ليسانس في علم المكتبات والعلوم الوثائقية، جامعة وهران 1993م، ص46.
- (13) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص47.

(14) أبو القاسم سعد الله: بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني: مرجع سابق، ص 13.

(15) دورو: عملة جزائرية كانت متداولة أيام العثمانيين ولفترة من العهد الاستعماري. ينظر: ناصر الدين سعيدوني.

(16) إبراهيم خرباش: مرجع سابق، ص 46.

(17) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 285.

(18) محمد بن علي السنوسي: ولد صبيحة يوم الاثنين 12 ربيع الأول 1202 هـ الموافق 21 ديسمبر 1787م، وكانت ولادته بضاحية وادي مئيثاً بمنداس الواقعة على ضفة وادي الشلف بمنطقة الواسطة التابعة لبلدية مستغانم في الجزائر، درس بمازونة على يد الشيخ أبي طالب، وحفيده أحمد بن هني ... أصبح له أتباعا يسيرون وفق منهجه، لتتطور بعد وفاته إلى طريقة صوفية نادت بالجهاد في صحاري الجزائر وتشاد وليبيا ينظر في ذلك: عبد القادر بن علي: الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية، مطبعة دار الجزائر العربية، دمشق، عام 1386هـ/1966م، القسم الأول، ص 08. ينظر أيضاً: أحمد صدقي الدجاني: الحركة السنوسية نشأتها ونفوسها في القرن التاسع عشر، بيروت 1988م، ص 34 وما بعدها.

(19) Djilali Sari : Les villes préconiales de l'Algérie occidentale, Nédroma–Mazouna– Kalla, S.N.E.D. Alger 1978, p48.

(20) مولاي بلحميسي: "دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن 15 إلى منتصف القرن العشرين" في مجلة العصر - ع 11 (01 أكتوبر)، الجزائر 1997م، ص 08.

(21) إبراهيم خرباش: مرجع سابق، ص 47.

(22) ناصر الدين سعيدوني، والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م، ص 195.

(23) فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص 164.

(24) مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص 09.

(25) Moulay Belhamissi : Histoire de Mazouna, une petite ville, une longue histoire, Alger 1981, p49 .

(26) Moulay Belhamissi : op cit. p.48

(27) فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص 164.

(28) مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص 09.

(29) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(30) عبد المجيد مزبان: مرجع سابق، ص 11.

(31) مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص 198.

(32) ناصر الدين سعيدوني المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص 195 وما بعدها.

(33) يراجع: عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

(34) المرجع نفسه.

(35) ناصر الدين سعيدوني المهدي بوعبدلي : مرجع سابق، 197.

(36) مولاي بلحميسي : مرجع سابق، ص 09.

(37) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(38) المرجع نفسه .

(39) المرجع نفسه .

(40) للاستزادة ينظر: ميسوم ميلود، مدرسة مازونة: دراسة تاريخية فنية، مذكرة ماجستير في الثقافة الشعبية، تحت إشراف أ.د عبد الحميد حاجيات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان 2003/2002، ص 92 وما يليها.

(41) ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي : مرجع سابق، ص 197-198

(42) مولاي بلحميسي : مرجع سابق، ص 09 وما بعدها.